340 - ـ فصل : يغوص البحر من طلب اللآلي .

ما يتناهى في طلب العلم إلا عاشق العلم و العاشق ينبغي أن يصبر على المكاره .

و من ضرورة المتشاغل به البعد عن الكسب و مذ فقد التفقد لهم من الأمراء و من الإخوان لازمهم الفقر ضرورة .

و الفضائل تنادي { هنالك ابتلي المؤمنون و زلزلوا زلزالا شديدا } .

فكلما خافت من ابتلاء قالت : .

(لا تحسب المجد تمرا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا) .

و لما آثر أحمد بن حنبل Bه طلب العلم و كان فقيرا أبقي أربعين سنة يتشاغل به و لا يتزوج فينبغي للفقير أن يصابر فقره كما فعل أحمد .

و من يطيق ما أطاق ؟ فقد رد من المال خمسين ألفا و كان يأكل الكامخ و يتأدم بالملح .

فما شاع له الذكر الجميل جزافا و لا ترددت الأقدام إلى قبره إلا لمعنى عجيب .

فيا له ثناء ملأ الآفاق و جمالا زين الوجود و عزا نسخ كل ذل .

هذا في العاجل و ثواب الآجل لا يوصف .

و تلمح قبور أكثر العلماء لا تعرف و لا تزار ترخصوا و تأولوا و خالطوا السلاطين فذهبت بركة العلم و محى الجاه و وردوا عند الموت حياض الندم .

فيا لها حسرات لا تتلافى و خسرانا لا ينجبر و كانت صحبة اللذات طرفة عين و لازم الأسف دائما .

فالصبر الصبر أيها الطالب للفضائل فإن لذة الراحة بالهوى أو بالبطالة تذهب و يبقى الأسى و قال الشافعي رضي ا تعالى عنه : .

(يا نفس ما هو إلا صبر أيام ... كأن مدتها أضغاث أحلام) .

(يا نفس جوزي عن الدنيا مبادرة ... و خل عنها فإن العيش قدامي) .

ثم أيها العالم الفقير أيسرك ملك سلطان من السلاطين و أن ما تعلمه من العلم لا تعلمه ؟ .

كلا ما أظن بالمتيقظ أن يؤثر هذا .

ثم أنت إذا وقع لك مستحسن أو معنى عجيب تجد لذة لا يجدها ملتذ باللذات الحسية .

فقد حرم من رزق الشهوات ما قد رزقت و قد شاركتهم في قوام العيش و لم يبق إلا الفضول الذي إذا أخذ لم يكد يضر .

ثم هم على المخاطرة في باب الآخرة غالبا و أنت على السلامة في الأغلب .

فتلمح يا أخي عواقب الأحوال و اقمع الكسل المثبط عن الفضائل .

فإن كثير من العلماء الذين ماتوا مفرطين يتقلبون في حسرات و أسف .

رأى رجل شيخنا ابن الزغواني في المنام فقال له الشيخ : أكثر ما عندكم الغفلة و أكثر ما عندنا الندامة .

فأهرب وفقك ا قبل الحبس و فسخ عقد الهوى على الغبن الفاحش .

و اعلم أن الفضائل لا تنال بالهوينا و أن يسير التفريط يشين وجه المحاسن .

فالبدار البدار و نفس النفس يتردد و ملك الموت غائب ما قدم بعد و انهض بعزيمة عازم .

(إذا هم ألقى بين عينيه عزمة ... و نكب عن ذكر العاقب جانبا) .

(و لم يستشر في أمره غير نفسه ... و لم يرض إلا قائم السيف صاحبا) .

و ارفض في هذه العزيمة الدنيا و أربابها فبارك ا لأهل الدنيا في دنياهم فنحن الأغنياء و هم الفقراء .

كما قال إبراهيم بن أدهم : [و لو علم الملوك و أبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف] .

فأبناء الدنيا أحدهم لا يكاد يأكل لقمة إلا حراما أو شبهة .

و هو و إن لم يؤثر فوكيله يفعله و لا يبالي هو بقلة دين وكيله .

وإن عمروا دارا سخروا الفعلة و إن جمعوا مالا فمن وجوه لا تصلح ثم كل منهم خائف أن يقتل أو يعزل أو يشتم فعيبهم نقص .

و نحن نأكل ما ظاهر الشرع يشهد له بالإباحة و لا نخاف من عدو و لا ولايتنا تقبل العزل .

و العز في الدنيا لنا لا لهم و إقبال الخلق علينا و تقبيل أيدينا و تعظيمنا عندهم كثير .

و في الآخرة بيننا و بينهم تفاوت إن شاء ا تعالى .

فإن لفت أرباب الدنيا أعناقهم يعلمون قدر مزيتنا .

و إن غلت أيديهم عن إعطائنا فلذة العفاف أطيب و مرارة المنن لا تفي بالمأخوذ و إنما هو طعام دون طعام و لباس دون لباس و إنها أيام قلائل .

و العجب لمن شرقت نفسه حتى طلب العلم إذ لا يطلبه إلا ذو نفس شريفة كيف بذل لبذل من لا عزة إلا بالددنانير و لا مفخرة له إلا بالمكنة و لقد أنشدني أبو يعلى العلوي : .

(رب قوم في خلائقهم ... عرر قد صيروا غررا) .

(ستر المال القبيح لهم ... سترى ـ إن زال ـ ما سترا) .

أيقظنا ا من رقدة الغافلين و رزقنا فكر المتيقظين .

و وفقنا للعمل بمقتضى العلم و العقل إنه قريب مجيب